

[٢١] كتاب العرفة

باب معرفة ما يصفه الناس [في] غير موضعه

من ذلك «أَشْفَارُ الْعَيْنِ» يذهب الناس إلى أنها الشَّعْرُ النَّابِتُ عَلَى حُرُوفِ الْعَيْنِ، وَذَلِكَ غَلَطٌ، إِنَّمَا الْأَشْفَارُ حُرُوفُ الْعَيْنِ الَّتِي يَنْبِتُ عَلَيْهَا الشَّعْرُ، وَالشَّعْرُ هُوَ الْهُدْبُ. وَقَالَ الْفُقَهَاءُ الْمُتَقَدِّمُونَ: فِي كُلِّ شُفْرِ مِنْ أَشْفَارِ الْعَيْنِ رُبْعُ الدِّيةِ، يَعْنُونَ فِي كُلِّ جَفْنٍ، وَشُفْرُ كُلِّ شَيْءٍ: حَرْفُهُ، وَكَذَلِكَ شَفِيرُهُ، وَمِنْهُ يُقَالُ: «شَفِيرُ الْوَادِي» وَ«شُفْرُ الرَّحِمِ»، فَإِنْ كَانَ أَحَدٌ مِنَ الْفَصَحَاءِ سَمَّى الشَّعْرَ^(١) شُفْرًا فَإِنَّمَا سَمَاهُ بِمَنْيَتِهِ، وَالْعَرَبُ تَسْمِي الشَّيْءَ بِاسْمِ الشَّيْءِ^(٢) إِذَا كَانَ مُجَاوِرًا لَهُ، أَوْ كَانَ مِنْهُ بِسَبَبٍ، عَلَى مَا يَبْتَنَّى لَكَ فِي «بَابِ تَسْمِيَةِ [٢٢] الشَّيْءِ بِاسْمِ غَيْرِهِ».

وَمِنْ ذَلِكَ «حُمَةُ الْعَقْرَبِ وَالزُّنْبُورِ» يذهب الناس إلى أنها سَوْكَةُ الْعَقْرَبِ وَشَوْكَةُ الزُّنْبُورِ الَّتِي يَلْسَعَانُ بِهَا؛ وَذَلِكَ غَلَطٌ، إِنَّمَا الْحُمَةُ سَمُّهُمَا وَضَرْهُمَا، وَكَذَلِكَ هِيَ مِنَ الْحَيَةِ «لَأَنَّهَا سَمٌ» وَمِنْهُ قَوْلُ ابْنِ سِيرِينَ «يَكْرَهُ التَّوْبَاقُ إِذَا كَانَ فِيهِ الْحُمَةُ» يَعْنِي بِذَلِكَ السَّمَّ، وَأَرَادَ لُحُومَ الْحَيَّاتِ لِأَنَّهَا سَمٌ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ: «لَا رُقِيَّةَ إِلَّا مِنْ نَقْلَةٍ أَوْ حُمَةٍ أَوْ نَفْسٍ» فَالْنَمْلَةُ: قُرُوشٌ تَخْرُجُ فِي الْجَنْبِ، تَقُولُ الْمَجُوسُ: إِنْ وَلَدَ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ مِنْ أُخْتِهِ ثُمَّ خَطَّ عَلَى النَّمْلَةِ يَشْفِي صَاحِبَهَا^(٣)، قَالَ الشَّاعِرُ^(٤):

وَلَا عَيْبَ فِينَا غَيْرَ عَزَقٍ لِمَعَشَرٍ كَرَامٍ، وَأَنَا لَا نَخْطُ عَلَى الثَّمَلِ^(٥)

(١) فِي «يَسْمَى الشَّعْرَ». (٢) «بِاسْمِ غَيْرِهِ». (٣) فِي «اشْفَى صَاحِبَهَا».

(٤) نَسَبَ هَذَا الْبَيْتَ لِعَمْرُو بْنِ حُمَةَ الدُّوسِيِّ، وَنَسَبَ لِمَزَاحِمِ الْعَقِيلِيِّ، وَنَسَبَ لِعُرْوَةَ الْخُرَاعِيِّ.

(٥) قَبْلَ هَذَا الْبَيْتِ قَوْلُهُ:

لَنَا الْعِزَّةُ الْقَعْسَاءُ وَالْبَاسُ وَالنُّدَى بَدِينَا بِهَا فِي كُلِّ نَادٍ وَفِي حِفْلِ
وَأَنْ تَشْرَبَ الْكَلْبِي الْمَرَضَ دِمَاءَنَا بَرِينَ، وَيَبْرَى ذُو نَجِيسٍ وَذُو خَبَلٍ

وَالْعِزَّةُ الْعَلِيَّةُ وَالْمُنْعَةُ، وَ«الْقَعْسَاءُ» الثَّابِتَةُ، وَ«بَدِينَا» أَرَادَ بِدَانَا فَخَفَّفَ الْهَمْزَةَ، وَكَذَلِكَ «بَرِينَ» وَيَبْرَى فِي الْبَيْتِ الَّذِي بَعْدَهُ، أَصْلُهُمَا يَبْرَثُ وَيَبْرَأُ فَخَفَّفَ الْهَمْزَةَ فِيهِمَا، وَ«نَادٍ» هُوَ مَجْلِسُ الْقَوْمِ وَمَكَانُ اجْتِمَاعِهِمْ، وَ«الْحِفْلُ» الْمَجْتَمَعُ، وَ«نَجِيسٌ» هُوَ الدِّاءُ الَّذِي لَا يَبْرَأُ وَ«خَبَلٌ» هُوَ الْجُنُونُ وَفَسَادُ الْأَعْضَاءِ، يَقُولُ: لَنَا الْفَضْلُ عَلَى النَّاسِ بِالْعَلِيَّةِ وَالشَّلَّةِ، وَنَحْنُ مُلُوكٌ دِمَاؤُنَا تَشْفِي الْكَلْبَ وَالْأَمْرَاضَ الَّتِي لَا عِلَاجَ لَهَا.

يريد أنا لسنا بمجوس ننكح الأخوات^(١). وَالنَفْسُ: العين، يقال: أصابت فلاناً نفساً. وَالنَافِسُ: العائن، والحَمَّةُ لكل هائمة ذات سُمٍّ، فأما شوكة العقرب فهي الإبرة. ومن ذلك «الطَّوْبُ» يذهب الناس إلى أنه في الفَرْح دون الجزع، وليس كذلك، إنما الطرب [٢٣] خفة تصيب الرجل لشدة السرور، أو لشدة الجزع، قال الشاعر، وهو النابغة^(٢) الجعدي:

وَأَرَانِي طَرِبًا فِي إِنْهَارِهِمْ طَرِبَ الْوَالِهَ أَوْ كَالْمُخْتَبِلِ^(٣)
وقال آخر^(٤):

يَقْلُنْ : لَقَدْ بَكَيْتَ، فَقُلْتُ : كَلًّا وَهَلْ يَبْكِي مِنَ الطَّرِبِ الْجَلِيدِ^(٥) !!

ومن ذلك «الحَشَمَةُ» يضعها الناس موضع الاستحياء، قال الأصمعي: وليس كذلك، إنما هي بمعنى الغضب، وحكى عن بعض فصحاء العرب [أنه قال]: «إن ذلك لممًا يُحْشِمُ بني

(١) وقف إسماعيل بن يسار - وكان شعوبيا متعصبا على العرب - ينشد :

إِذْ نَرَبِي بِنَاتِنَا وَتَدَسُّو ن سَفَاهَا بِنَاتِكُمْ فِي التَّرَابِ
فقال له أشعب : أراد العرب بناتهم لغير ما أردتموهن، فدفنوهن خوف العار، وريتموهن أنتم لتتكحوهن، فضحك الناس وخجل إسماعيل.

(٢) اسمه عبد الله بن قيس ، وكنيته أبو ليلى.

(٣) قبل هذا البيت قوله :

سَأَلْتَنِي جَارَتِي عَنْ أُمَّتِي وَإِذَا مَا عِي ذُو اللَّبِ يَسْلُ
سَأَلْتَنِي عَنْ أَنَاسٍ هَلَكُوا شَرِبَ الدَّهْرَ عَلَيْهِمْ وَأَكَل

«جارتِي» أراد امرأته «أمتِي» قومه والقرن الذي يعيش فيه، و«عِي» جهل وجه الصواب «يسل» أراد يسأل، فحذف الهمزة كما تحذف في فعل الأمر في نحو قوله تعالى: ﴿سَلِّ بَيْتَ إِسْرَءِيلَ﴾ [البقرة: ٢١١] وهو حذف كثير في الأمر شاذ في المضارع، و«الواله» المتحير، و«المختل» الذاهب العقل، يقول: أراني أستخف من بعدهم كما يستخف المتحير أو الذي ذهب عقله.

(٤) نسبته قوم لبشار بن برد، وصوب الجواليقي أنه لأبي جنة - بالجيم والنون - الأسدي، واسم أبي جنة: حكيم بن عبيد، وقيل: حكيم بن مصعب، وهو خال ذي الرمة.

(٥) رواه الجواليقي والبطليوسي «فقلن لقد بكيت - إلخ» وقيله :

كُتِمَتْ عَوَازِلِي مَا فِي فِؤَادِي وَقُلْتُ لَهْن : لَيْتَهُمْ بَعِيد
وَفَاضَتْ عِبْرَةً أَشْفَقْتُ مِنْهَا تَجُودُ كَأَنْ وَابِلَهَا الْفَرِيد

و«كُتِمَتْ عَوَازِلِي - إلخ» أراد أخفيت عنهن ما أجده من الوجد بالذين تحملوا، وأظهرت لهم السرور ببعدهم، خوفاً من لومهم، و«الفريد» جمع فريدة، وهي الشذرة من الفضة كاللؤلؤة.

فلان» أي : يغضبهم^(١).

قال [الأصمعي] : ونحو من هذا قول الناس «زَكَيْتُ الأمر» يذهبون فيه إلى معنى ظننت وتوهمت، وليس كذلك، إنما هو بمعنى علمت، يقال: زَكَيْتُ الأمر أَرَكْنُهُ، قال قَعْنَبُ بْنُ أُمِّ صَاحِبٍ^(٢):

[٢٤] وَلَنْ يُرَاجِعَ قَلْبِي وَذُهُمُ أَبَدًا زَكَيْتُ مِنْهُمْ عَلَى مِثْلِ الَّذِي زَكَيْتُ^(٣)

أي : علمت منهم مثل الذي علموا مني^(٤).

ومن ذلك «القافلة» يذهب الناس إلى أنها الرفقة في السفر، ذاهبة كانت أو راجعة، وليس كذلك^(٥)، إنما القافلة الراجعة من السفر، يقال: قَفَلْتُ فهي قافلة، وَقَفَلَ الْجُنْدُ مِنْ مَبْعَثِهِمْ، أي : رَجَعُوا، ولا يقال لمن خرج إلى مكة من العراق قافلة^(٦) حتى يَصُدُّوا.

ومن ذلك «المأتم» يذهب الناس إلى أنه المضيبة، [و] يقولون: كنا في مأتم، وليس كذلك، إنما المأتم النساء يجتمعن في الخير والشر، والجمع مأتم، والصواب أن يقولوا: كنا في مَنَاحَة، وإنما قيل لها مَنَاحَة من التَّوَاتُحِ لتقابلهن عند البكاء، يقال: الجبلان يتناوحان، إذا تَقَابَلَا، وكذلك الشَّجَرُ، وقال الشاعر^(٧):

(١) قال الجواليقي : «الحشمة في اللغة لها موضعان : أحدهما الغضب، والآخر الحياء، وقبل للمبرد: الحشمة الغضب والحشمة الحياء، ما معنى ذلك؟ فقال: الغضب والحياء كلاهما نقصان يلحق النفس؛ فكان مخرجهما واحدا؛ وسمي حشم الرجل حشما لأنهم يغضبون لغضبه» اهـ، وقال البطليوسي: «هذا (الذي ذكره ابن قتيبة) قول الأصمعي، وهو المشهور، وقد ذكر غيره أن الحشمة تكون بمعنى الاستحياء» اهـ.

(٢) يقوله في بني ضب وبني وهب، وهم بنو أعمامه من بني عبد الله بن غطفان.

(٣) قال ابن درستويه: «وليس في البيت دليل على ما استشهدوا عليه به، وإنما معناه خمنت على مثل ما خمنوا عليه من سوء الظن، والعرب تقول: فلان صاحب إزكان، وليسوا يعنون صاحب علم؛ ولكن صاحب حزر» اهـ بتصرف وإيضاح.

(٤) نقل البطليموسي عن أبي زيد قوله: «والظن إذا قوي في النفس وكثرت دلائله على الأمر المظنون صار كالعلم؛ ولأجل هذا استعملت العرب الظن بمعنى العلم» اهـ.

(٥) قال الأزهري: «هذا غلط؛ ما زالت العرب تسمي الناهضين في ابتداء الأسفار قافلة، تفاؤلا بأن يسر الله لها القبول، وهو شائع في كلام فصحاءهم» ومثل هذا نقل عن ابن الأعرابي.

(٦) في «ولا يقال لمن خرج من العراق إلى مكة قافلة - إلخ».

(٧) هذا البيت لأبي عطاء السندي، واسمه مرزوق، من كلمة يرثي فيها ابن هبيرة، وكان المنصور قد قتله، وقبل البيت قوله:

ألا إن عينا لم تجد يوم واسط عليك بجاري دمعها لجمود

وقوله: «لم تجد» أي : لم تسمح بالبكاء، وقوله «لجمود» أي : قليلة الدمع، يقال: عين جامدة وجمود، ويقال: سنة جماد، أي قليلة المطر.

عَشِيَّةَ قَامَ النَّائِحَاتُ ، وَشَقَّقَتْ جُيُوبَ بَأْيَدِي مَأْتِمٍ وَخَدُوذُ^(١)

[٢٥] أي : بأيدي نساء^(٢) ، وقال آخر^(٣) :

رَمَتْهُ أُنَاةٌ مِنْ رَبِيعَةٍ عَامِرٍ نَوُومُ الضُّحَا فِي مَأْتِمٍ أَيِّ مَأْتِمٍ^(٤)
يريد في نساء أي نساء.

ومن ذلك قول الناس : «فَلَانٌ يَتَصَدَّقُ» ، إِذَا أُعْطِيَ ، وَ«فَلَانٌ يَتَصَدَّقُ» إِذَا سَأَلَ ، وهذه غلط ، والصواب «فَلَانٌ يَسْأَلُ» ، وإنما المتصدق المُعْطِي ، قال الله تعالى : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [يوسف : ٨٨] .

ومن ذلك «الْحَمَامُ» يذهب الناس إلى أنه^(٥) الدَّوَاجِنُ التي تُسْتَفْرَخُ في البيوت ، وذلك غلط ، إنما الحمام ذوات الأطواق وما أشبهها مثل الفَوَاجِتِ والقَمَارِيِّ والقَطَا^(٦) ، قال ذلك الأصمعي ، ووافقه عليه الكسائي ، قال حُمَيْدُ بْنُ ثَوْرٍ [الهاللي] :

وَمَا هَاجَ هَذَا الشُّوقُ إِلَّا حَمَامَةً دَعَتْ سَاقَ حُرِّ تَرْحَةٍ وَتَرْتُمَا
فالحمامة ههنا قُمْرِيَّةٌ . وقال النابغة الذبياني :

[٢٦] وَأَحْكُمُ كَحُكْمِ فَتَاةٍ الْحَيِّ إِذْ نَظَرْتُ

إِلَى حَمَامٍ شَرَّاعٍ وَارِدِ الثَّمَدِ^(٧)

قال الأصمعي : هذه زَرْقَاءُ اليمامة نظرت إلى قَطَا . قال : وأما الدواجن فهي التي تُسْتَفْرَخُ

(١) قوله : «عشية» هو بدل من قوله : «يوم واسط» في البيت المتقدم ، وقيام النائحات : تهيؤها للنوح ، والجيوب : جمع جيب .

(٢) حكى ابن الأباري أن المأتم يطلق على الرجال أبطأ ، وأنشد على ذلك قول الراجز :

حتى تراهن عليه فيما كما ترى حول الأمير المأتما

(٣) البيت لأبي حية النميري ، واسمه الهيثم بن الربيع .

(٤) الأناة : المرأة فتور عند القيام ، وأصلها وناة ، من الونى الذي هو الفتور والكسل ، وربيعه عامر : ربيعة بن صعصعة ، ونووم الضحا : كناية عن كونها مكرومة يخدمها الناس ولا تخدم غيرها .

(٥) في «إلى أنها» .

(٦) ساق حر ، قيل : هو ذكر القمر ، وقيل : الحر فرخ الحمام ، والساق أبوه ، وقيل : ساق حر حكاية صوتها ، والترحة : الحزن ، والترنم : الصوت الذي لا يفهم ، يقول : ما أثار شوقي إلا صوت قمرية تدعو ذكرها .

(٧) «أحكم» من الحكمة ، أي : أصب مثل إصابة هذه الفتاة ، وضع الأمر في موضعه ، و«سراع» يروى بالسین المهملة ، ويروى بالشين المعجمة ؛ فأما الأولى فمأخوذة من السرعة ، وأما الثانية فمأخوذة من الشروع في الشيء . والتمد : القليل من الماء .